وينعل الخوف بالاعصاب فعل الالم تمامًا لان الخائف يخشى على حياته فيتألم ولذلك يصفرُّ ويبرد جلدهُ وينعقد لسانهُ ويخنق فؤادهُ وينتصب شعرهُ واذا زاد خوفهُ فصار رعبًا اتسع منخراهُ وجحظت عيناهُ محدقتين بما سبَّب الخوف وقد تلتفتان من جهة الى اخرى على غير هدًى وانقبضت عضلات وجههِ وارتعد بدنهُ كلهُ ثم تتفلج عضلاتهُ فيقف كالصنم ولا تعود عواصر امعائهِ قادرة على ضبط ما فيها

وغنيٌّ عن البيان انهُ اذا ظهرت امارات الالم في الوجه وتكرَّرت يومًا بعد يوم وسنة بعد اخرى سواء كان الالم عقليًا او جسديًا بتيت آثارها فيهِ غضونًا وارتفاعات وكذلك تبقى الآثار في الجسم كلهِ فيصفر ويشحب فيمتاز وجه الحزين والمتألِّم والمحتقر لغيرهِ عن وجه المسرور المرتضي الذي لا يزدري الناس لكن هذه الآثار قد لا تبقى في الجسم وقد تعرض له لاسباب اخرى فلا تكون دلالتها صحيحة دائمًا

ائتلاف الشعوب

تحدث للامم بواعث فتأتلف وبدعوها تباين المصالح والمقاصد فتختلف كما يتنافر شقيقان صنوان ويتضافر عدوّان لدودان "ويستصحب الانسان من لا يلائمهُ". ولو ساد السلام قرنًا من الدهر بين البشر لضاقت عليهم الارض بما رحبت "ولولا الوئام لهلك الأنام"

ولقد عجب القوم لما جرى من الاتحاد الثنائي في الشهر الماضي بين دولة انكلترا المسيحية ودولة اليابان الوثنية فرأيت ان اعرّب بهذه المناسبة ما نشرهُ احد مشاهير العمرانيين بداعي ما هو جارٍ بين الروس والفرنسيس من حسن الصلات من رسالة نافعة في مجلة "العلم الاجتماعي" الباريسية تفلسف في تقارب الشعوب وتباعدهم فلسفة استند فيها الى التجارب والحوادث فحصر اسبابها في ثلاثة قال ما ترجمتهُ بتصرف :

﴿ الاول — الحاجة الى مقاومة عدوّ عام ﴾ فما يثور خصام او صدام بين ثلاثة اشخاص اذ لا يكون الخصوم في كل المعارك الاَّ فريقين . فقد يُبغض زيد عمرًا وبكرًا ويبغض عمرو زيدًا وبكرًا ويبغض بكر عمرًا وزيدًا ولكن اذا حدث حادث بين هؤلاء الثلاثة يتألب اثنان منهما على الآخر . والاتحاد في العادة يكون بين ضعيفين على قوي . وقد يتفق القويان ليكونا يدًا واحدة على الضعيف وبا من غائلة التعادي بينهما من اجل تقسيم اسلابهِ والاستئثار بحقوقهِ على نحو ما جرى عام ١٨٦٤ عقيب حرب إعلنتها بروسيا والنمسا على الدانمرك قُبَيل معركة سادوفا في بوهيميا

وما يصدق على الخصومات بين الافراد يصدق على الغارات بين الامم . ومن خصائص كل دولة ان توطد دعائم الامن في داخل بلادها وخارجها وتحفظ بحياة الامة اذا اوشكت ان تكون عرضة لتيار مطامع احدى خصياتها . تعمل الدولة في تلك الحال ما كان يعملهُ أمروءٌ يدافع عن حقيقتهِ . فتنادي بالثارات وبالنجدات وان كانت المالك لا تتصدَّع من التهديد تصدع الافراد

يُعطى الحكام في كل أُمة أُجورهم ليتصامُّوا ما داموا لا يسمعون من الاغيار غير صدى المكارم . فلا يجيزون القوى الحربية التي أُمِّروا عليها عند اقل بادرة حتى لا يلقوا الامة جمعاء في أزمَة طويلة الاَّ بعد إيقانهم بانهم يجنون من ورائها ثمرة ما

وتقدر الدولة المستباح حماها ان تطلب معونة جاراتها . وذلك بان تقنع احداهنَّ بان عدوَّها هو ايضاً عدوهنَّ حتى اذا حصل هذا الاقناع تألَّف عصابة لاتقاء ضرر مشترَك . وعلى نسبة تلك المنفرات المتحدة المباديء والغايات يتولد تآلف بين مَن اتفقوا على بغض شعب معيَّن

ولقد احسن الفلاسفة تفسير هذه الحالة فقالوا ان البغضاء تفيض الولاء وان الانسان قد يسرُّ بشيء ما لعلمهِ انهُ مخالف لذوق عدوهِ . مثال ذلك ان الطليان لما اقتتلوا مع الاحباش منذ بضع سنين وقع شيء من الخصام بين الجالية الطليان والبرازيليين في بلاد برازيل فجعل البرازيليون ينادون " ليحي منليك ملك الاحباش " . وكذلك الشك في بوهيميا فانهم يمقتون الالمان كل المقت وان لم يحبوا الفرنسيس . فكلما سنحت فرصة هتفوا " ليحيَ فرنسا "

طفح التاريخ بمعاهدات تقوم دليلاً على صحة هذه الدعوى . فقد تآخى الآثينيون والاسبارطيون في وقعة سلامينة صدًّا لهجمات عدوهم الفارسي المفاجيء . ثم اخذت اسبارطة تعادي اثينا بعد بضع سنين حسدًا منها فاجتمع الطيبيون من ثم مع اللاسيدومينيين على معاداة اثينا . ولما ظفرت اسبارطة اتحدت اثينا مع الطيبيين

في كل هذه المحالفات تتجلى لك امارات السلطة العامة وان الرأي العام تَبعٌ لما يراهُ القابضون على ازمة السياسة . وقد يسبق الرأي العام احياناً فيصير رجال الحكومة تبعاً لهُ فلا يقولون الاَّ قولهُ ولا ينطقون الاَّ بلسانهِ . وقد يعلو الصوت العام من قوة تبعثهُ الى ذلك فترى في الاحايين تقارباً بين الامم كتقارب اشخاص لم يتعارفوا ولا غرض لهم الاَّ ان حظهم واحد وهم شركاء في الخطر المحدق بهم

جاء في التاريخ الروماني احسن مثال للصحبة التي أُسست على قواعد من شانها التشفي عن بغض مشترَك ألا وهي محالفة رومية ومرسيليا فان كلتيهما كانتا عدوتين للقرطاجنيين . فدام

الاخاء متين العُرى بين هاتين الجمهوريتين بحيث لم تتمكن الكبيرة من ابتلاع الصغيرة الاَّ بانضمام المرسيليين اثناء الحروب المدنية الى حزب القائد پومپيوس

ويحدّث التاريخ ايضاً ان قد دام الاتحاد اعواماً طوالاً بين تركيا وفرنسا خلال الحرب التي نشبت بين المانيا وفرنسا . وفيهِ من العجب ما بلغ حدَّ الغرابة اذ حادت الامتان من أجل هذا التحالف الذي كانت الحال تضطرها الى ابرامهِ عن التعاليم المقرّرة وتناستا ثوراً استحكم من نفوس الفريقين باختلاف الدين والاخلاق والجنس

وظهور اعاظم الفاتحين هو على الجملة سبب الاتحاد بين اناس ما كانوا يحلمون بانضمام بعضهم الى بعض فينشأ هذا الاتحاد اذاً لمقاومة الاطماع الكبيرة . مثال ذلك اتحاد المدن اليونانية على الاسكندر . واتحاد العشائر الانكليزية على قيصر . واتحاد الرومانيين والفرنك والقوط على اتيلا . واتحاد اوربا تقريباً على نابوليون ما خلا الدانمرك وبولونيا فانهما ابتا ان تكونا على هذا الفاتح نكايةً باهل اوربا وتشفياً منهم عما ساموهما من خُطَّة خَسْف وقهر

وينتج من هذا القانون المبني على التجارب الصحيحة ان الممالك تتوادُّ على البعد اكثر من توادها على القرب . والمحالفات التي تطول حياتها هي ما عُقد منها بين الممالك المتنائية . وهذا تاريخ فرنسا مثالاً يشهد ان اسكتلندا واسوج وتركيا صدقن فرنسا الوثام مما دل على ان الخصومات أليفة القرابات والقضايا لا تقام الاَّ بين الجيران . ولكن قد تحدث لهؤلاء الجيران قضايا مع جيران لهم ليسوا جيرانا فمن السهل الاتفاق مع هؤلاء . فقد كانت فرنسا واسكتلندا كغصنين في دَوْحَة بغضاً بانكلترا وكذلك كانت اسوج وتركيا بغضاً بالنمسا والمانيا

ومما يدور على الالسنة اليوم في اميركا الجنوبية انهُ سيعقد اتحاد بين فنزويلا وجمهورية اكواتور على كولومبيا الفاصلة بينهما وسيبرم اتحاد آخر موقت بين شيلي والبرازيل على جمهورية الارجنتين التي تفصل بينهما ايضاً

ومن اقوى عوامل الاتحاد بين الروس والفرنسيس ان الاملاك الروسية والاملاك الفرنساوية لا تكاد تتجاور مع كثرة انتشارها على سطح البسيطة . على حين تقرب املاك المانيا من املاك تينك الدولتين فيحدث من جرّاء ذلك عراك ونزاع . وهذه القاعدة ليست دائمة الاطراد بل هي تابعة للاضطرابات والتغيُّرات التي يدعو اليها السببان اللذان سنتكلم عليهما بعد

عدوة مملكة ما عدوة لصديقة تلك المملكة وان كانتا متباعدتين . لان اصدقاء اصدقائنا اصدقاؤنا واعداء اعدائنا اعداؤنا . ورب جيران متساكنين يتآخون ورب جيران يختصمون . بمعنى ان مصلحة الامة تامر بالتحالف تارةً مع هذه وطوراً مع تلك

حدا بالفرنسيس الخوف من الاسرة المالكة في النمسا ان تصالحوا مع الترك وبينهم من العداوة الدينية حوائل ومن الحنق والكره طوائل بل صافوا انكلترا وهي عدوتهم القديمة وبينهم من الحفائظ ما تسودُّ طوله بيض الايام

ولطالما تطلَّب الملك فرنسيس الاول عقد تحالف مع انكلترا فلم يتهيأ لهُ ذلك الاَّ على عهد لويس الرابع عشر. وقصارى القول ان القاعدة العامة بين جارين لا يحبهما جار آخر ان يؤاخي اقلهما خطرًا دفاعًا عن حوزته ويتناسى الاحقاد الماضية وما يُتوقَّع من الخصومة في الآتي

﴿ الثاني — قرابة الاجناس ﴾ كم من امم تقاربت لا من اصل منشإها بل بالاختلاط الذي حصل ويحصل في كل مملكة ودور من ادوار التاس . ولا سبيل لان نجد في خليط من الناس ساكنين في صعيد واحد أحفادَ احفاد الجد الاول او اجدادًا متشاكلين . وهنا اضاع علماء الانسان فلسفتهم فلم يستطيعوا ان يحكموا على الناس من جماجمهم واشكالها . والثابت ان كثيرًا من الشعوب المتباينة متجاورةً كانت او متباعدة يطبع فيها تغلُّبُ بعض الشعوب عليها طابعًا اجتماعيًّا لا تنفكُّ تُعرف بهِ . واللغات من اعظم المشاكلات بين الامم . وكلما تكاثرت السياحات بتسهيل المواصلات تظهر هذه المشاكلات متجلية بابهى صورها وتدعو الى مؤاخاة عظيمة مشتركة

ربما تعرَّف الانسان بابن عم لهُ فاحبهُ بمجرد كونهِ ابن عمهِ وبهذا تأسست وحدة ايطاليا. وهذا الاحساس هو الذي أهاب بالأمارات البلقانية الى التنبُّهِ وبهِ قامت الاتحادات الجرمانية والسلافية واليونانية

ولا تنسَ حماس الهولانديين للبوير وحسن صلات البرتغال والبرازيل وكيف تصالحت اليابان مع الصين بعد حربهما الاخيرة

ولا يفوتنك ايضًا ما يشهدهُ الروس من السهولة بين قبائل التتار التي أُضيفت بلادها اليهم. وفيلدا لا تزال نافرةً منهم لمخالفة هيئتها الاجتماعية للروسيين كل المخالفة . فالقيصر يحيَّا احسن تحيَّة في سهول سمرقند القاحلة الواسعة مما لا يحيَّا بهِ على بقعة اميال من بطرسبرج . ذلك لان الروسيَّ على الحقيقة مغوليٌّ محضَر . فكأنهُ عند انتقالهِ الى اواسط آسيا دخل دارهُ وحُشر بين جيلهِ وقبيلهِ اذا اردنا ان نتكلم بلسان اجتماعي

ومما يستدعي الاعجاب ويستلفت النظر ما حدث من تآلف المان المانيا بالمان النمسا تآلفًا كان داعية لتسهيل التحالف الثلاثي فان الالمان في بلاد النمسا يؤلفون الطبقة الحاكمة . وحكومة تلك البلاد منجذبة باميالها نحو اهالي بروسيا بها تحرَّجت من هذا الميل ونأت عن

توطيده ولئن كان هذان الشعبان متجاورين فانهما متحابّان . ولا بدَّ ان يعرو هذه الحال قلب وابدال اذا انتهت الرئاسة الى ايدي السلاف والتشك خاصة وبين هذه الشعوب والالمان من النفور المستحكم القديم ما يعلم الباحثون مكانهُ . على ان هذا التبدل ليس كما يتوهم البعض قاب قوسين او ادنى لضعف قوة السلاف من حيث الاجتماع ووقوفهم فيهِ دون خصومهم مع تفرُّق كلمتهم وانشقاقهم على انفسهم والمجر الذين يبغضونهم اقرب الى الالمان منهم اليهم فيما اذا استصرخوا لقتال عدوّ عام

اما ايطاليا فليس لها في النمسا اقل ميل على ما عُلم . وقد دعتها القاعدة الاولى التي ذكرناها آنفاً ان تخطب ودّ المانيا وان لم تجاورها وهي حامية هدتها اليها الطبيعة . فايطاليا منضمة اذاً الى النمسا بالقوة وحكم التبعية كما انك تضطر الى ان تسلّم على من بينك وبينهُ برودة اذا صادفتهُ عند صديق لك

وما يدعو اليهِ الجنس من التآلف ظهر من حركة الرأي العام التي عقبت الحروب الاخيرة فانك لا ترى امة اوربية تحمَّست حق التحمس لاهل مدغسكر الذين داهمتهم فرنسا ونزلت في عُقر دارهم ولا لاجل المراكشيين الذين قاتلهم الاسبانيول ولا للدراويش الذين تغلبت الحملة الانكليزية المصرية عليهم . ولكن تعال اشهد الامبال التي حازها البوير في اوربا كلها بل في انكلترا نفسها

﴿ الثالث — رابطة الافكار ﴾ يقوى نوع هذا التآلف غالباً في نفوس الشعوب المتحدة في سياستها . وربما أشربتهُ القلوب إعظاماً للاحساس الديني

لا جرم ان مسائل المصالح تمتزج احياناً في هذه الامبال التي لا غرض فيها . وقد يحدث ان تكون حركة الائتلاف خُلقاً بغير تكلف بحيث ينطبق عليها قولهم " ان الطيور على اشكالها تقع " "وشبيهُ الشيء منجذب اليهِ" . ويحدث ان يكون المتعاقدون على اخلاص الولاء عن بعد من امم منوعة مؤلفة من المغلوبين على امرهم المقهورين من عدوهم . فلا يأمل الفريق الاول من الثاني الاَّ ما ترجوهُ الثكلى من الثكلى فانهما تتحابان وتتباثان الجوى وتتناجيان في سر هذا التحاب كما يتحاب الاشتراكيون من اي بلد كانوا ويتآخون على اتباع طريقة ما مع اخوانهم في البلدان الاخرى

اذا عُرف هذا ساغ ان نقول انهُ يمكن التأليف بين المتباعدين من الامم باتحاد الدين خصوصاً في الاعصر التي كانت لهُ على العقول السلطة النافذة . ولولا هذا التآلف السامي بذاتهِ لم يجرِ ذاك الاتحاد الذي دعا الى قيام الصليبيين اتحاد لم ينظر فيهِ الى ما بينهم من الخصومات

وتشاجر الاغراض والوف من دواعي التنافر التي تنوسيت وعُمل بما قيل "عند الشدائد تذهب الاحقاد"

ترى من ذلك ان ما يدعو الى اهتمام الاوربيين بالحبشة واظهارهم صورة مليك يظهر عاهل وامبراطور هو احتفاظ الاحباش ببقية من النصرانية وهذا التآلف كان مستحكماً ايضاً قبل اكتشاف بلاد الحبشة ايام كان ينقب عنها الملاّحون البرتغاليون في شواطيء البحر الهندي ولا قائد لهم الا اقاصيص مدخولة مبهمة

ومثل هذا التآلف حصل بين المسلمين على بعد الديار فقد انتشر في تركيا بل بلغ الهند خبر الهزيمة التي قاسى منها المراكشيون البُرحَيْن فصار المغول اعداء المسيحيين لما تظاهروا بالاسلامية على انك ترى تيمورلنك أنحى على الاتراك انحاء شديداً ومثّل بهم تمثيلاً. ولا تنسَ ان فرنسا يألفها الكاثوليك المشارقة خصوصاً المؤارنة. وما برحت فرنسا حاصلة على بعض النفوذ في الخارج باسم الدين مما يعرفهُ حق المعرفة تاركو الدين من اهل السياسة

ومن انواع التآلف تآلف مبنيٌّ على وحدة الآراء بين الشعوب الحية والشعوب المائتة وبين الحاضر والماضي فقد يتشيع الجمهوري للجمهوريات اليونانية ويتشيع الملكيُّ المملكة اليونانية بل قد يتشيع اناس لسويسرا بسبب غليوم تل — احد الرجال الذين حرّروها من سلطة النمسا سنة ١٣٠٧ — وقد يتشيع اناس على البندقية بسبب ذلك المجلس السرّي الذي كان مؤلفاً من عشرة اشخاص على عهد جمهورية البندقية القديمة

وقد اثنى انصار الحكومة الديموقراطية المتحمسون على مدينة اسبارطة الديموقراطية مع انها كانت محكومة بملكين والرقيق فيها يعامل اقسى معاملة - وكان اعداء الدين يقدسون سقراط واعوانهُ وقد كان هو ومن لفّ لفهُ اكثر تديُّناً من الحزب الذي كان يطاردهم . واصبح من الظُّرف ايام الثورة الفرنساوية ان يلعن قيصر ويبارك بومبيوس لان هذا دافع عن الجمهورية الرومانية لانقاذها من طامع الى الحكم المطلق مع ان بومبيوس كان يرأس الطبقة العالية من الرومان وقيصر يرأس جمهور الشعب

هذه خلاصة ما سطّرهُ الفيلسوف الافرنسي وفيها زبدة الاسباب التي تدعو الى توادالامم وتباغضها وتآلف القلوب وتفرّقها

محمد كرد علي